

لتناسيب التتويج الفاروق

خواطر تاريخية ودستورية

عز رسيوم التتويج والتولية

مؤسس محمد عبد الله عثمان

يبدو به الملك الدستوري لأمتة ، وأقدس عهد يقطعه لها حين تقلده لأموها ؛ وهذا الاجراء هو أداء الملك لليمين التي نص عليها الدستور في مادته الخمسين ، وذلك أمام البرلمان مجتمعاً بمجلسيه في هيئة مؤتمرة ونصها : « أحاب بالله العظيم اني أحترم الدستور وقوانين الأمة المصرية وأحافظ على استقلال الوطن وسلامة أراضيه » ؛ وسيتلو هذا الاجراء الخطير عدة حفلات واستقبالات عظيمة يتاح فيها للأمة أن تبدى عميق حبها وولائها للملكها ، ويستعرض فيها الجيش المصرى الذى تؤمل مصر أن يستعيد في المستقبل القريب مجده العسكري التالى ، ويغدو حصنها المكين ، وحامى حى استقلالها ودمارها

وإذا كان « تتويج » الفاروق سيقصر على ثلاثة اجراءات ومظاهر رئيسية ، هى أداء اليمين الدستورية يوم الخميس القادم ، فأداء صلاة الجمعة في اليوم التالى في مسجد الرفاعى ، ثم استعراض الجيش في اليوم التالى ؛ فان هذا البرنامج على بساطته المؤثرة يحتوى جميع العناصر القومية والشعبية التي تأخذ بها جميع القصور والأمم العريقة ، بل والتي عرفتها الملكية المصرية في ظل الدولة الاسلامية ؛ ذلك أن تبادل العهد بين العرش والأمة عن طريق اليمين الدستورية التي يؤديها جلالة الملك أمام ممثلى الأمة ، والتي هى معقد رسوم التولية ، ليست في الواقع إلا مظهرأ جديداً من مظاهر نظام البيعة القديم تطور مع الزمن طبقاً لتطور الفكرة الدستورية ؛ ففي العصور الوسطى كانت الخلافة أو العرش مصدر السلطات الروحية والزمنية ، وكانت البيعة تعقد للخليفة أو صاحب العرش بهذه الصفة ؛ أما اليوم فان الأمة تندو في ظل النظم الدستورية هي مصدر السلطات ، ويغدو العرش رمزها الأسمى ، وهي التي يدين لها الجميع بالولاء

أما التتويج بصورة الشكلى المعروفة عند ملوك النصرانية من وضع التاج على رأس الملك الجديد في حفل دينى على الأغلب فلم يتبع دائماً في الدول المصرية الاسلامية ، ولم يتبع إلا في دولة الخلفاء الفاطميين ، فقد كان لخلفاء هذه الدولة ضمن آلات الملك تاج من الجوهر الثمين يعرف بالتاج الشريف وبه جوهرة عظيمة تعرف

تستقبل مصر بعد يومين حادثاً من أعظم الحوادث في تاريخها الحديث هو الاحتفال « بتتويج » جلالة ملكها فاروق الأول ، أو بالحرى يلوغ الملك رشده الدستوري وتولية مقاليد الشئون ، وانتاح عهده السعيد في ظل الاستقلال والحريات الدستورية ؛ ويلاحظ ان هذا الحادث الذى هو الأول من نوعه في تاريخنا الحديث ، سوف ينشئ سابقة دستورية ينسج على منوالها ، وسوف يكون هو الحجر الأول في صرح تقاليد الملكية المصرية الدستورية

ولقد كان للملكية المصرية في عصور الاستقلال والمجد رسوم وتقاليد مؤثرة ؛ وكانت رسوم البيعة والتولية من أعظمها وأعرقها ، وكانت تشح بألوان ساحرة من الفخامة والبهاء ، وتعتبر من الحوادث القومية الجليلة ؛ ولو لم تنكب مصر بمحنة الفتح العثمانى في سنة ١٥١٧ ، وبهناك بذلك صرح استقلالها وملوكيتها التالدة ، لكان عرش مصر اليوم أقدم عروش العالم وأعرقها

فالحادث العظيم الذى تستقبله مصر في الند يعتبر من الوجهة التاريخية ذا أهمية خاصة في تاريخها ؛ أولاً لأنه يصل ماضى الملكية المصرية المستقلة بمحاضرها بعد أن انقطع سيرها زهاء أربعة قرون ؛ وثانياً لأنه يفتح عهد الملكية الدستورية في عصر الاستقلال ؛ وهذا المعنى التاريخى المزدوج هو الذى يسبغ على تتويج ملك مصر الشاب خطورة قومية ودستورية ذات شأن وسوف تتخذ اجراءات التتويج هنا صفة رمزية معنوية ، فليس هناك تتويج بالمعنى الحقيقى ، وليس لمصر الحديثة تاج موروث أو آلات وأزياء ملكية خاصة يتقلدها الملك عند توليته ؛ وانما هنالك اجراء دستورى خطير هو في الواقع أسمى مظهر

باليقظة ومن حولها جواهر دونها ، وله موظف خاص بكل موضعه على رأس الخليفة في الموابك والأيام العظام يعرف « بتولى شد التاج » . أما الدول التي تلتها كالدولة الأيوبية ، ودولة المماليك البحرية ، ثم دول السلاطين الشراكسة ، فلم يكن التاج بين الآلات الملكية التي اختصت بها ، بل كان أهمها العرش (أو سرير الملك) وكان سلاطين هذه الدول يضمون على رؤوسهم أيام التولية طرحة سوداء مرقومة بالبياض ، أو عمامة سوداء مرقومة بالبياض ، تنوبها بشعار الخلافة العباسية القديمة وهو السواد ، وقد كانت هذه الدول تنضوي من الوجهة الروحية تحت لواء الخلافة العباسية الناهية ، على أنه لم يكن سوى انضواء شكلي فقط

ثم إن الحفلات القومية التقليدية كانت في هذه المناسبات العظيمة تحتوى دائماً على النصر المسكرى ، وعلى بعض المظاهر الدينية ؛ فكانت مواكب الخلفاء في الدولة الفاطمية تمتاز بروعة عسكرية ، وكان يحف بالخليفة الجديد وينتظم في ركبه صفوة القادة والضباط والجنود في أبواب وأزواء باهرة ، ويشق هذا الركب الخلفي المسكرى الفخم مدينة القاهرة فيعرض على أنظار الشعب المعجب طرفاً من قوة الدولة والجيش ؛ وكانت مواكب السلاطين فيما بعد تمتاز أيام التولية أيضاً بهذا الطابع المسكرى الفخم ؛ وما زال الطابع المسكرى في عصرنا أعظم مظهر للمواكب المشهودة في أرقى الدول وأعظمها

أما المظاهر الدينية فقد كانت تتخذ مكانتها دائماً في المواكب الخلافية والسلطانية ، وكانت في ظل الدولة الفاطمية أشد ظهوراً وتمكناً منها في أية دولة مصرية أخرى ؛ ذلك لأن الدولة الفاطمية كانت خلافة مذهبية وكانت الإيمانية الدينية شعارها ، وكان الخليفة يجمع بين يديه جميع السلطات الدينية والأمنية ؛ وكانت مواكب السلاطين تحتوى أيضاً مثل هذا الطابع الديني ؛ بيد أنه يجب أن نفرق بين هذه المظاهر التي كانت تتفق من الوجهة الشكلية مع روح العصر ، وبين مسألة أخرى هي مدى مثول النصر الديني في تولية الخلفاء والسلاطين المصريين . وقد أثبتت هذه المسألة أخيراً لمناسبة تتويج جلالة الملك فاروق ، ورأى بعضهم أن تجرى إلى جانب الحفلة الدستورية حفلة دينية في أحد مساجد

القاهرة يتلو فيها شيخ الأزهر على جلالاته صيغاً معينة يجب عنها جلالاته بما يناسبها ، فيكون هذا بمثابة تتويج ديني لجلالاته إلى جانب التتويج المدني ؛ وكانت حجة هؤلاء أن مصر دولة إسلامية دينها الرسمي الإسلام ؛ وقد اعترض على هذا الاجراء بحق بأنه يناقض الأوضاع الدستورية ويخلق في الدولة سلطة روحية لا وجود لها ؛ على أننا نزيد هنا أن هذا الاجراء لم تعرفه القصور المصرية فيما عرفت من رسومها وتقاليدها ، ولم يحدث قط في تاريخ مصر الإسلامية ، أن تلقى خليفة أو سلطان عهداً أو تفويضاً من زعيم ديني سواء أكان قاضي القضاة أم شيخ الأزهر ، ولم تلق السلاطين مثل هذا التفويض إلا من الخليفة العباسي ، الذي أقاموه هم بمصر بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد ليتخذوا من لواها أداة من أدوات السياسة . بيد أنه كان إجراء شكلياً فقط ؛ كذلك لم يحدث قط في تاريخ مصر الإسلامية أن توج خليفة ولسطان في مسجد من المساجد ، بل كان التتويج يجري دائماً في مقر الملك ، في القصر الفاطمي أيام الدولة الفاطمية ، وفي دار الوزارة الكبرى ثم في قصر القلعة أيام الدولة الأيوبية والدول التي تلتها ؛ أما العناصر والمظاهر الدينية في حفلات تولية الخلفاء والسلاطين فكانت تلخص فيما يلي : مثول قاضي القضاة وأكابر العلماء إلى جانب أقطاب الهيئات العسكرية والدينية الأخرى ، في حفل التولية ، وفي الموكب الملكي ؛ وأداء الخليفة لصلاة العيد أو الجمعة في الجامع الأزهر أو جامع عمرو أو جامع الحاكم أو غيرها من المساجد الجامعة ؛ ولم يظهر نفوذ رجال الدين في مسائل العرش والتولية إلا في أواخر دولة الملوك الشراكسة حيث كان للعلماء والقضاة الأربعة نفوذ يذكر في تولية بعض السلاطين وعزلهم وتقرير رشدهم ؛ بيد أن هذا النفوذ كان عارضاً يرجع إلى أحوال الدولة المصرية والمجتمع المصري يومئذ ؛ ولم يكن من العوامل الأساسية في مسائل العرش والتولية .

والواقع أن إجراء رسوم التتويج بالمسجد هو أقرب إلى الشعائر الوثنية والنصرانية ، والكنيسة تؤدي مثل هذا الدور الذي يراود أن يؤديه المسجد - في الأمم النصرانية ؛ وقد شهدنا هذا المنظر في تتويج جلالة ملك انكلترا حيث جرى تتويجه في

عرش الشمس

يقدمه واحد وأربعون قرناً !

مؤسّس عبد المنعم خداف

حينما أرسلت خيالي يرودلى ما يقع عليه « عرش الشمس » الذي يتبوأه اليوم الفاروق ، من البحر فوق ، إلى البحيرات تحت ، عرفت في نفسي كلاماً يُوحى إلى أن خذ قلمك وسر في موكب التتويج جندياً يحمى أو شاعراً يغني ! فانه موكب يسير فيه واحد وأربعون قرناً هي كل تاريخ الانسانية الذي وعته ذاكرتها . . . وتحتشد فيه الدنيا لرجوع شباب « أمها » في مَلِك نظيف المادة مكتمل ، واسع الروح رَقْدِيس الحياة ، قد صنعه الله على عينه ، وآتاه البسطة في العلم والجسم ، واختار له ذلك الاسم الذي يومية الزمن به إلى تاريخ وقف وتاريخ أقبل ، وحاطه بحكام أذكى على علم تام بكالات النفوس وواجبات الملوك ، وعَبَد له طريق الحكم وأزال منه الأشواك ورفع على عرش لا تخفق فوقه راية أجنبية ، وأعد له ليكون ملكاً بطلاً ومريراً شهباً وقائد جيل !

وهأنذا في الموكب أهتف : -

أشهد أن لا إله إلا الله يا مليكي ! فلا أعبدك . . . ولا أنسى بك مَلِككَ وبارئك وإلهك . . . كن فتناً بعبادة الملوك في الماضي ، ومن لا تزال في قلوبهم بقية من هذه الجاهلية في الحاضر

ولكني أجد في قلبي سطوة الحب لمعانك الذي أخرجك الله على قلوب الناس إخراجاً مفاجئاً في ظرف غريب ، كما يُخرجُ الفجر فتطرفُ له كل عين ، ويتفتح له كل قلب ، وتغفل الأرض به من الظلام !

ولمعناك يا مولاي في ذهني صورة تمتد امتداد النهار . . . فتقع على الزنبي في جنوب الوادي ، وعلى الأسكندري ومن بينهما

الكنيسة وتلا عليه مطران كنتربري صيغاً معينة أجب عليها ؛ ومع أن الدول الأوربية قد تحررت منذ بعيد من سلطان الكنيسة فان هذه الاجراءات ما تزال تمثل في الاحتفالات القومية الكبرى كالتتويج وغيره ، فزى الأمبراطور نابوليون بونابرت مثلاً بجوز رسوم التتويج في كنيسة الأنفاليد في قاعة القرن التاسع عشر ، كما توج سلفه الأمبراطور شارلمان قبل ذلك بألف عام في إحدى كنائس رومة وتولى البابا ليون الثالث وضع التاج على رأسه ؛ على أن هذه المظاهر النصرانية والمناظر الوثنية التي ترجع إلى روح العصور الوسطى أيام كان سلطان الكنيسة الروحي يغشى كل سلطة زمنية وتمتثل بلوائه الملوكية لدعم سلطانها الزماني ، لم تعرفها الملوكية الاسلامية ولم تأخذ بها ولم يلبس المسجد في هذا الميدان مثل هذا الدور الذي تلعبه الكنيسة في تتويج ملوك النصرانية ، كذلك لم تعرف الدولة الاسلامية لرجال الدين سلطة خاصة كتملك التي يزاوها الأتجار النصارى في مثل هذه المناسبات السياسية والقومية .

وعلى ذلك فان البرنامج الذي وضع لتتويج جلالة ملك مصر والذي يقوم على العناصر التقليدية الثلاثة : العنصر الدستوري - قوامه أداء جلالاته لليمين الدستورية أمام ممثلي الأمة ، والعنصر لديني ومظهره أن يؤدي جلالاته صلاة الجمعة في اليوم التالي في أحد المساجد الكبيرة ، والعنصر العسكري ومظهره أن يقوم جلالاته باستعراض الجيش المصري الباسل في حفل نفخ ، هو في الواقع برنامج موفق ، يتفق على بساطته مع الروح الدستورية لصحيحة ، وبجانب تلك البدع والرسوم الوثنية التي زعم البعض أنها تسبغ على حفلات التتويج لوناً روحياً خاشعاً ، وتنوّه بصفة مصر الاسلامية في حين أنها تنافي الأوضاع الدستورية والتقاليد الملوكية الاسلامية ؛ بل إن هذا العهد الدستوري المؤثر الذي تقدم به الملك لأمتة يوم توليه مقاليد أمورها ، ليدكرنا كيف تمت ولاية جده العظيم محمد على لمصر على يد زعماء الأمة لمصرية في منظر من أعظم المناظر الديمقراطية التي يسجلها لتاريخ المصري

محمد عبد الله عنانه